



الدولة لا تحترم العقد الاجتماعي الذي بينها وبين مواطنيها، ولا تحفظ حقوقهم تجاهها، ولا تفي بالتزاماتها معهم، ولا تحفظ العهد القائم بينهما، رغم أنها موجودة لأجلهم، وقائمة بسببيهم، بحجة تمثيلهم والقيام بأعبائهم، وتمثيلهم والنيابة عنهم، وفق شروطٍ قديمة، والتزاماتٍ بين الطرفين باتت معروفة.

إلا أنها أصبحت باغيةً ومتسلطة، وظالمةً وغاشمةً، ومعتديةً ومستبدةً، وجائرةً وقاسيةً، لا تقيم العدل، ولا تحقق المساواة، ولا تنصف بين مواطنيها، ولا تهتم بمعاناتهم، ولا تقلق على أوضاعهم، ولا تسعى لتحقيق مصالحهم، ولا تبذل الجهد الكافي للتخفيف عنهم، أو مساعدتهم والنهوض بهم، وتوفير احتياجاتهم، وضمان مستقبلهم، وتأمين ضعفهم وشيخوختهم.

في الوقت الذي تنقل فيه كواهلهم بالضرائب والمكوس، والرسوم والطوابع والدمغات، بحجة توفير الدعم، وتسديد الديون، وتغطية السلسل والحقوق، وتسلح الجيش وتطوير قدراته، والدفاع عن البلاد وحماية الثغور والحدود، وتأمين الخدمات الاجتماعية والصحية والعلمية، وغير ذلك من النفقات التي تدعي الدولة أنها عامةً للشعب، وأنها تخص كل المواطنين، وتخدم لهم كل الطبقات، دون تمييزٍ أو مفاضلة.

إلا أن الحقيقة غير ذلك، فالسلطات غير منصفةٍ وغير عادلة، وهي ليست نزيهة ولا نظيفة، ولا تساوي بين أبنائها، ولا تعدل بين مواطنيها، فهي تخدم الكبار وتهمل الصغار، وتعنى بشؤون الأغنياء وتنسى هموم الفقراء، وتدافع عن الأقوياء وتغضض عيونها عن حاجات الضعفاء، وتنتصر للظالمين القادرين، وتدير ظهرها لمظالم البسطاء المحروميين، وتساند المعذبين وتعاقب الضحايا، وتحل العذاب والقتل والجرائم، وتدين القتلى والمعذبين، وتحاسب عامة المواطنين إن أخطأوا، وتعفوا عن خاصتهم من أبناء الذوات، وأهل السلطة واليسار إن هم بغو واعتدوا، وأخطئوا وأساؤوا.

وهي التي تخلق بين مواطنيها العداوات والخصومات، والاختلافات والتناقضات، وتجعل بينهم فوارق وفواصل، وتصنفهم طبقاتٍ ومنازل، وأسياداً وعبيداً، وسراً وعراءً، وخداماً ومخدومين، ما يخلق في المجتمعات شروخاتٍ وانقسامات، ويولد

عداواتٍ وأحقاداً، ويضعف الإخلاص والولاء، ويفقد الانتقام والانتساب، ويدفع المواطنين للاهتمام بشؤون، والانشغال عن الوطن بحاجاتهم، وهو الأمر الذي يسهل الاختراقات والارتباطات، ويمكن الخصوم من الولوج إلى الدول والتجسس على السلطات والحكومات.

شوارع الأغنياء مرصوفة ومنارة، ونظيفةً ومشجرة، وواسعةً وعرية، وفيها ممراتٌ وأرصفة، محددةً منازلها ومرقمة، ومحروسةً أحياؤها ومحمية، ومنظمةً أبنيتها ومساجد، ومرتبةً مساكنها وجميلة، كثيرةً حدائقها مزданة، ومخدمةً مرافقتها بانتظامٍ دائمٍ، فلا تقطع عنها الكهرباء ولا خدمات الاتصالات ومياه الشرب، ولا تجتمع قمامتها في الشوارع، ولا يغيب عمال النظافة عنها، ينظفون شوراعها، ويرشون أماكن القمامة بالمبيدات والمطهرات، ويتفقدون العيوب، ويصلحون الطرقات، ويلبون كل اتصال، ويستجيبون لكل نداء، ويهبون لإنقاذ كل مستغيثٍ ومحاج، ولا يتأخرون عن حالةٍ أو إسعاف، ولا عن طارئٍ ومفاجئ.

بينما ترك طرق الفقراء مظلمة محفورة، منبوشة كالقبور، وبمعبرة كالأشلاء، رملية غير مرصوفة، أو طينيةً موحلة، يتعجب غبارها الخافق، ويتطاير في سمائها القش والأوراق، والنایلون والأكياس، وغيره مما خف وزنه وكثير في الشوارع والأزقة والطرقات، وتتوزع القمامة كيما اتفق، في الشوارع والأزقة، دون حاوياتٍ أو مجعماً، في الصيف أو الشتاء، التي تحوي كل قذرٍ ومنتن، وفيها حيواناتٍ نافقة، وفضلاتٍ آدمية وحيوانية، وغير ذلك مما يولد روائح خبيثة وسيئة، تكاد تخنق الأنفاس، مع ما تحمل من أوبئةٍ وأمراض، وما توفر من بيئاتٍ مناسبة للذباب ومختلف أنواع الحشرات القارصة والضارة.

الدولة عن هذه الأحياء غافلة، وعن حاجات السكان نائمة، لا تعيرهم اهتماماً، ولا تفكّر بهم، ولا تقلق عليهم، ولا يعنيها مصيرهم، ولا تسعى لمساعدتهم، ولا تبذل أي جهدٍ لاستقائهم، ولا يهمها ما يصيّبهم من أمراض، أو يلحق بهم من أذى، فهذه المساكن، إن صح أن يطلق عليها اسم مساكن، فإنها عشوائية، أو هي مخيماتٍ وتجمعاتٍ سكنية، يسكنها الفقراء والمعوزون، والعامل والفالحون، والخدمة والفنيون، ومن يقومون بأعمال الخدمة، ويؤدون مهاماً يراها غيرهم وضيعة، وإن كانوا لا يستطيعون العيش بدونها، أو الاستمتاع بالحياة بغيرها، ومع حاجتهم لهم، فإنهم يهملون أمرهم، ولا يعنون بشؤونهم. تخطى الدولة أو السلطة عندما تفرق بين مواطناتها، وتمايز بينهم، وتكرس واقع الطبقية عندهم، فتعتقد أن بعضهم مكرمين معززين، أو هكذا الله خلقهم، صنفاً آخر، وطرازاً مختلفاً، فهم أهل للخدمة والرفة، وأنهم يستحقون الاهتمام والتقدير، والعناية والإكرام، وأنه لا يجوز التقصير معهم، أو التأخر عن خدمتهم، فهم واجهة الدولة، وعنوان المجتمع، وصورته الجميلة لدى العالم، وسمعتهم المتقدمة بين الأمم.

بينما غيرهم ليسوا إلا عبيداً للخدمة، وآلاتٍ للعمل، فلا يضرير إن هي أساءت معاملتهم، أو أخطأوا في حقهم، أو قصرت في خدمتهم، أو تأخرت وتوانت عن نجدهم، ولم تعجل في الاستجابة إلى شروطهم، وتلبية حاجاتهم، إذ يجوز إهمالهم، ويمكن التقصير معهم، لأنهم أهل البلاد الأصläء، وسكانه الشرفاء، والأقدر تحملًا للعناء والمعاناة، والأصبر على الظروف وتمرير الصرف.

بل لأنهم بمفهومهم، لا يستحقون بذل المزيد من الجهد لأجلهم، فهكذا قد خلقهم الله وأرادهم، وأردوا حياتهم وأركس عيشهما، إذ يكفيهم مكانٌ فيه ينامون، وقصعة منها يأكلون، وكوباً فيه يشربون، وبعض أسمالٍ بالية بها يتذرون أو يتسترون، ولا شيء آخر تتكلف به تجاههم، فلا تأمرين صحي، ولا ضمانة شيخوخة، ولا معاشات تقاعد، ولا دعم لتعليمٍ، ولا شيء مما يشعر الإنسان بطمأنينةٍ على مستقبله، وسترٍ كريمٍ في آخر أيامه.

يدعى البعض أن الدولة أو السلطة لا تقصر تجاه مواطناتها، ولا تتأخر عن مساعدتهم، بل إنها تنفق مبالغ كبيرة من ميزانيتها، لتغطية نفقات الطبقات الفقيرة، فتدعم السلع الأساسية، وتُشَرِّح فاتورة الهاتف والماء والكهرباء، بما يجعلهم يدفعون الحد الأدنى، وتقدم لهم خدماتٍ كثيرة، وتخفف من نسبة ما يجيئ منهم، وتتوفر لهم خدماتٍ صحية عديدة في المستشفيات

والمصحات الحكومية، وقد تعفيهم من كثيٍرٍ من نفقات العلاج، وغير ذلك من الخدمات التي تراها مخصصة لهم. السلطة تعلم أنها طبقية وتكذب، وأنها تنفق على الأغنياء أضعاف ما تنفقه على الفقراء، وتعطي القادرين ما لا تعطيه للقراء المحتاجين والمعوزين، ثم يستغربون، لماذا الثورة، ولماذا يسعى المواطنون إلى اللجوء والهجرة.

المصادر: